بعض المدارس الاسلامية في القدس الشريف

في آخر القرن التاسع الهجري

الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي

(١)

في تاريخ التربية الاسلامية ، أو في تاريخ الثقافة الاسلامية اجمالاً ، وَحْدة تشمل جميع نواحيها ، تكون واضحة احياناً وخافية أحياناً اخرى ، قبل ان تتولى الدولة شيئاً من المسؤولية عن التعليم ، وبعد أن تولت مقداراً عظيماً منها . ومن أهم مظاهر هذه الوحدة نشوء « دار العلم » عند الفاطميين في القرن الرابع ، ونشوء « المدرسة » عند العباسيين في القرن الخامس[١] . وفيما يلي بيان ذلك بمنتهى الاختصار ، تمهيداً لبحث المدارس الاسلامية في القدس الشريف .

يمكن إجمال تاريخ التربية الاسلامية حتى القرن الخامس ببضع فقرات . فاذا استثنينا « المؤدّب » الذي وظّفه الأمراء والموسرون لتعليم اولادهم تعليماً خاصاً ، واذا استثنينا « الرِّحْلة » في طلب العلم لاقتصارها على النابهين ، فإن « المَكْتب » و « المَجْلس » كانا اهم وسائل التعليم التي تيسرت لأبناء اكثرية المسلمين في صدر الاسلام حتى نهاية القرن الرابع . فأما المكتب (او الكُتّاب) فكان لإزالة الأمية بتعليم القراءة والكتابة ،

---

(١) بحثنا أصل المدرسة ودار العلم وغيرهما من المعاهد في مقالة مطولة باللغة الانكليزية نشرت في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن :

Bulletin of the School of Oriental Studies, Val. XXV, Part 2 (1962), PP. 225-238

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولتعليم القرآن والأخبار والحساب وغير ذلك . وكان المعلم ، صاحب المكتب ، يُقيمه في بيته أو مكان عمله أو في اي مكان آخر . واما المجلس فكان يُعقد حَلْقة في المسجد او في البيوت الخاصة او ما شابهها . وكان صاحب المجلس العالم او الشيخ او الاستاذ او الحكيم[٢] .

وكان تعلُّم أكثر مَنْ طلبوا التعلّم ينتهي بالمكتب ، فاذا رغب مَنْ أكمله الزيادة طلب علوم الدين عند أهل العلم او علوم اللغة عند أهلها ، او علوم الحكمة عند الحكماء ، أو شيئاً من كل هذه الفروع عند اصحابها بحسب رغبة الطالب واستعداده للتحصيل . وجرت العادة أن يأخذ المعلم أجْراً على تعليمه ، مع ان كثيراً من تُقَاة معلمي المكتب واساتذة المجلس لم يأخذوه على تعليم القرآن[٣] . لكن لم يكن للدولة في هذا يد ، فلم تنفق على التعليم من بيت المال ، حتى على التعليم الذي كانت الحاجة ماسّةً اليه : عندما انشأ عمر بن الخطاب الديوان فاحتاج الى كُتّاب يقرأون ويكتبون ويحسبون ، وعندما عرّب عبد الملك بن مروان دواوين الحكومة فاحتاج الى موظفين من العرب يُحْسنون ادارتها ، وعندما حاول المأمون إرغام الفقهاء على القول بخَلْق القرآن ، ولم يفطن أن يمهد لذلك بتعليم الناشئة .

---

(٢) تفصيل ذلك في كتابنا عن التربية الاسلامية الذي نُشر في لندن بعنوان :

Islamic Education: Its Traditions and Modermization into the Arab National Systems, PP.25-28

(٣) في هذا الأمر قولان ، أولهما يعتمد على القرآن : « فما سألتكم من أجْر إنْ أجْرِيَ الا على الله » (سورة يونس ، الآية ٧٢) ؛ « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إنْ أجْريَ الا على الله » (سورة سبأ ، الآية ٤٧) . وثانيهما يعتمد على الحديث : « أحقُّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله » (صحيح البخاري ، طبعة بولاق ، ١٢٩٦ ، ج ٣ ص ٤٩)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومع هذا فقد اهتم بعض الخلفاء والأمراء والموسرين بإنشاء عدد من المعاهد للتعليم والدرس على مستوىً أعْلى من مستوى المكتب وشبيهٍ بمستوى حَلْقة العالم في المسجد . وقد عرفت هذه المعاهد باسماء مختلفة كان من أشهرها « بيت الحكمة » الذي ازدهر في بغداد ، في عهد الرشيد والمأمون ، مكتبةً عامة ومكتباً للترجمة ونادياً للعلماء[٤] . وازداد الاهتمام بانشاء هذه المعاهد في اثناء القرن الثالث والقرن الرابع ، وأخذ مؤسسوها يَحْبِسون عليها الأوقاف ، فصار بالإمكان الإنفاق من رَيْع الوقف على طلاب العلم فيها بتوفير الكتب ومواد الكتابة ونفقات المعيشة .

وكان ماوُصِفَ أعلاه مألوفاً في أواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس ، عندما بدأت الدولة تهتم بالتعليم العالي دون الابتدائي ، فأنْشأ الفاطميون « دار العلم » بالاضافة الى الجامع الأزهر لتعليم مذهبهم وتدريب الدُّعاة ولنشره . فدار العلم هذه كانت مؤسسة رسمية أنفقت عليها الدولة من مالها ، وخصَّصت منه الرواتب للمعلمين والإعانات للطلاب ، كما هَيأت لهم جميعاً الكتب وأدوات الكتابة مجاناً . وكان تأسيس دار العلم من مظاهر التنافس مع العباسيين على السيادة السياسية والدينية ؛ باستخدام التربية والتعليم لهذه الغاية .

وسرعان مارَدَّ العباسيون على ذلك بانشاء المدرسة لتحقق لهم بعض ما حققته دار العلم للفاطميين . فقامت مدرسة في كل مدينة رئيسية في خراسان والعراق ، ولاتذكر المصادر الأصلية سورية أو مصر في هذا الدور . ويُعْزى إنْشاء هذه المدارس الى نظام الملك ، وزير آلب ارسلان ، أحد سلاطين السلاجقة الذين تولوا السلطة في بغداد باسم الخليفة العباسي . ومميزات المدرسة قريبة من مميزات دار العلم ، فقد اختصت

---

(٤) المعروف عن « بيت الحكمة » قليل وغامض . راجع الفهرست لابن النديم (طبعة فلوغِلْ) ص ٢٤٣ ؛ تاريخ الحكماء للقفطي (طبعة لِيبَرْتْ) ص ٩٨ ، ٤٤١ ـ ٤٤٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بتعليم علوم الدين على مذهب أهل السنة (وخاصة المذهب الشافعي في البدء) وعلوم اللغة العربية ، وكان المدرسون يأخذون أجراً والطلاب نفقة لمعيشتهم . فالمدرسة بهذه الصفات ليست ، كما زعموا ، بِدْعةً ظهرت طَفْرةً في القرن الخامس الهجري ، بل نشأت وتطورت على نسق ما سبقها من المعاهد عند الفاطميين والعباسيين . وفيما يلي نَصَّان يوضحان المبادئ الأساسية التي ذكرت آنفا اولهما للفقيه المالكي أبي الحسن القابسي القيرواني ، من علماء القرن الرابع :

« ان أئمة المسلمين في صدر هذه الأمة ، ما منهم إلا مَنْ نظر في أمور المسلمين فيما يُصْلحهم في الخاصة والعامة ، فلم يبلغْنا أنّ احداً منهم أقام معلمين يعلمون للناس اولادهم من صغرهم في الكتاتيب ، ويجعلون لهم على ذلك نَصيباً من مال الله ، كما قد منعوا لمن كلفوه القيام للمسلمين بالنظر بينهم في أحكامهم والآذان لصلاتهم في مساجدهم ، مع سائر ما جعلوه حفظاً لأمور المسلمين وحيطة عليهم . وما يمكن ان يكونوا أغفلوا شأن معلم الصبيان ، ولكنهم (والله اعلم) رأوا انه شيء مما يختص أمره كل انسان في نفسه ، اذ كان ما يعلّمه المرء لولده ، فهو صلاح نفسه المختصّ به ، فأبقوه عملاً من أعمال الآباء . . . »(٥)

وثاني النصَّيْن المشار اليهما للفقيه الشافعي تاج الدين السُّبْكي من علماء القرن الثامن ، وهو كما يلي :

« وشيخنا الذهبي زعم انه (اي نظام الملك) أول مَنْ بنى المدارس ، وليس كذلك ، فقد كانت المدرسة البَيْهَقية بنَيْسابور قبل ان يولد نظام الملك ، والمدرسة السعيدية بنيسابور بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود ، ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها الاستراباذي الواعظ

(٥) راجع « الرسالة المفصّلة لأحوال المعلمين » في كتاب التعليم في رأي القابسي لأحمد فؤاد الأهواني (القاهرة ١٣٦٤/١٩٤٥) ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الصوفي ، ومدرسة رابعة بنيسابور ايضاً بُنيت للاستاذ ابي اسحق الإسفراييني . وغلب على ظني ان نظام الملك أول مَنْ قدّر المعاليم للطلبة ، فانه لم يتضح لي هل كانت المدارس قبله بمعاليم للطلبة أو لا ، والأظهر انه لم يكن لهم معلوم . . . »[٦]

وظَنُّ السبكي هذا ايضاً لا تؤيده الحقائق التي بيَّناها فيما سبق من الكلام ، فقد وُجدت قبل نظام الملك معاهد ومكاتب خصص مؤسسوها « المعاليم » للطلاب . والغالب ان سبب نسبة المدارس الى نظام الملك كثرة ماأسسه منها في خراسان والعراق ، فعرفت بالنظامية نسبة له . ثم استُعيرت الصفة ، فصارت المدارس الرسمية التي تشرف عليها الدولة تسمى المدارس النظامية . واشهر مدارس نظام الملك بلا جدال نظامية بغداد التي فُتحت للتدريس في سنة ٤٥٩ للهجرة ، وكان من اشهر مدرسيها ابو حامد الغزالي .

لكن تأسيس هذه المدارس لا يدل على إنشاء دائرة للتعليم في جهاز الدولة ، او على ان الدولة اهتمت بالتعليم الابتدائي ، فهذا كما قال القابسي ظَلَّ « عملاً من اعمال الآباء » ، بل يمكن القول ان الاهتمام بالتعليم العالي ظَلَّ محدوداً ، وان المعاهد التي اختصت به كالمدرسة والمسجد اعتمدت على ريْع الأوقاف اكثر من اعتمادها على بيت المال لسد نفقاتها . اما مستوى التعليم فيها فتوقَّف على مقدرة المدرس وصيته ، لا على منهج مكتوب يسير بحسبه سائر المدرسين . والواقع ان الطلاب كانوا ينتسبون الى عالم مشهور اكثر من انتسابهم الى معهد معين . ويمكن القول اجمالاً ان المدرسة اختصت بتعليم علوم الدين وعلوم اللغة العربية واستبعدت الفلسفة ، وان دار العلم قبلت على الأقل أساليب الفلسفة في تدريس جميع العلوم .

---

(٦) طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة ، ١٣٢٤) ، ج ٣ ص ١٣٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٢)

أدخل الفاطميّون « دار العلم » الى القدس في اثناء خضوعها لحكمهم ، فقضى الصليبيون على الدار كما قضوا على غيرها من المعاهد الاسلامية عند سقوط المدينة بايديهم في سنة ٤٩٢ للهجرة (١٠٩٩ للميلاد) . وأدخل صلاح الدين الأيوبي « المدرسة » الى سورية ومصر ، وأنشأ في القدس مدرسة عُرفت باسمه بعد فتح المدينة على يده في سنة ٥٨٣ للهجرة (١١٨٧ للميلاد) ، فكان انشاء هذه المدرسة فتحاً جديداً في عالم التربية والتعليم ، اذ صار إنشاء المدارس سُنّة اتبعها كثير من السلاطين والأمراء والموسرين والعلماء وغيرهم ، في عهد الأيوبيين وفي عهد المماليك بعدهم .

وتاريخ القرون الثلاثة التي سبقت انتقال الحكم من المماليك الى العثمانيين حافل بذكر انشاء المدارس ذكراً مجملاً قليل التفاصيل . وأوفى مصدر عن الموضوع يتناول القرون الثلاثة المذكورة هو كتاب ألفه قاضي المدينة في سنة ٩٠٠ للهجرة[٧] جاء فيه بضعة اسطر عن بعض المدارس المشهورة ولا ذكر لأكثرها غير الاسماء . وقد أدخل المؤلف تحت موضوع المدارس كل مؤسسة دينية أو خيرية شبيهة أو غير شبيهة بالمدرسة بمعناها الاصطلاحي كدار القرآن ودار الحديث والرّباط والزاوية والتكية والخانقاه والتّربة والبيمارستان وغيرها[٨] .

---

(٧) كتاب الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل لعبد الرحمن بن محمد مجير الدين العُلَيْمي (القاهرة ١٢٨٧) ، ص ٣٨٥ ـ ٤٠٠ : « ذكر غالب مافي بيت المقدس من المدارس والمشاهد مما هو بجوار سور المسجد الأقصى » (يقصد المؤلف سور الحرم الشريف) .

(٨) درسها كلها الدكتور كامل جميل العسلي ، أمين مكتبة الجامعة الاردنية ، في كتابه النفيس « معاهد العلم في بيت المقدس » الذي صدر في عمان في شهر آذار ١٩٨١ ووصلني هدية من المؤلف بعد إكمال كتابة هذا البحث .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد اقتصرنا فيما يلي من البحث على المدارس بالمعنى الاصطلاحي التي تتضح معالمها في كتاب قاضي القدس المذكور ، وأدخلنا في البحث المعاهد التي لم تكن من المدارس بالمعنى الاصطلاحي ولكن المنشئ أو صاحب الوقف شرط التدريس أو التعليم فيها . وصرفنا النظر عما عدا ذلك من المعاهد التي لا تذكر عنها المصادر التاريخية المشهورة شيئاً يُعْتَدُّ به ، كمادة التدريس وأساليبه ، ومؤهلات المدرسين واحوال الطلاب . فكأن مؤلفي تلك الكتب التاريخية سكتوا عن شيء معلوم عندهم ، وظنوا ان القراء يعلمونه كذلك ، فجُلُّ ما في تلك الكتب ذكر عابر بكلمات قليلة عن سلطان أو أمير اسس مدرسة ، او عن عالم مشهور درّس فيها . ولكننا استفدنا من فصل عن « مدارس القدس القديمة » في كتاب ألّفه رئيس بلديتها العربي منذ نحو عشرين سنة ، من مزاياه نقلُ النقوش التي رآها على بعض أبنية المدارس توضح تاريخ الوقف واسم الواقف ، واقتباسٌ من سجلات المحكمة الشرعية عن بعض المدرسين وما خُصّص لهم من المعاليم[٩] .

كانت مدينة القدس التاريخية في آخر القرن التاسع الهجري كما هي الآن محاطة بسور حجري . وشكّل هذا السور حائطي الحرم الشريف من الشرق والجنوب . اما الحائطان الشمالي والغربي فكانا كما هما الآن يفصلان الحرم عن المدينة داخل السور . وكان للحرم حينئذٍ كما له الآن ابواب مفتوحة في حائطه الشمالي والغربي فقط . وأكثر المدارس التي سنذكرها قامت بقرب هذين الحائطين من الشمال والغرب أو ملاصقة لهما . وكان لعدد غير قليل من تلك المدارس أبوابٌ تؤدي الى ساحة الحرم بالاضافة الى ابواب تؤدي الى المدينة .

---

(٩) المفصل في تاريخ القدس لعارف العارف (القدس ، ١٣٨٠/١٩٦١) ، ص ٢٣٦ وما يليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقام عدد غير قليل من المدارس على ساحة الحرم . لكنه لم يُقْصد من هذه المدارس ولا من تلك المحيطة بالحرم ان تَنُوبَ عن حلَقات التدريس في المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة المشرفة ، بل كانت جميع المدارس في الحرم وفي خارجه مشاركة لها في التدريس . فكثيراً ما تولّى اصحاب حلقات التدريس فيها التدريس في المدارس المجاورة للحرم ، كما تولى بعض مدرسي هذه المدارس بعض الوظائف في الحرم من تدريس او إمامة أو خطابة .

وللمدارس التي سنذكرها فيما يلي صفات مشتركة : فكان لكل منها منشئ أوقف عليها الأوقاف من أراضٍ وعقارات . وكثيراً ما اشترط الواقف ما يُدرّس في مدرسته ، وخصص الوظائف فيها من شيخ للتدريس وناظر للادارة وخادم للعناية بالبناء . وبعض الوقفيّات تعين مقدار المعاليم للمدرّس (او المعيد) أو الناظر او الطالب . ويظهر من نصوص هذه الوقفيات أن عدد الطلاب كان قليلاً ، يتراوح بين العشرة والعشرين للمدرّس الواحد . لكن الغالب ان هؤلاء هم الذين خصصت لهم المعاليم لا غيرهم من المنتسبين الى الحلقة ، اذ الانتسابُ الى حلقات المدرسين المشهورين كان حراً ، في مسجدي الحرم الشريف وفي اي مدرسة من المدارس حوله ، دون قيود تتعلق بمستوى الطالب العلمي أو سنّه أو مقامه الاجتماعي .

أما أبنية المدارس (وخاصة ما بُني منها في عهد المماليك) فآيةٌ في فنّ المعمار والزخرفة كما يدل على ذلك ما بقي منها سالماً حتى يومنا هذا . وأصغر المدارس تكونت من إيوان وغرفتين مع المرافق ، واكبرها تكونت من طابقين في كل طابق ايوانان على الأقل وحول الإيوان غرف لا يقل عددها عن الأربع . وأبنية المدارس الكبيرة اشتملت على محراب أو مسجد صغير وأماكن للوضوء والطهارة . وقد استخدمت بعض ابنية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المدارس بيوتاً لإقامة شيوخها ، واحياناً لايواء الطلاب المنتفعين من الوقف اذا لم يجدوا المأوى في الرُّبَط والزوايا . وجرت العادة على مرّ الزمن ان يجمع العالم الواحد عدة وظائف من تدريس وخطابة وامامة في اكثر من مكان واحد ، كما جرت العادة بتَوْريث هذه الوظائف أو اقتسامها ، ففتح ذلك باباً لسوء الاستعمال في عصر الانحطاط .

وسنبدأ بذكر المدارس والمعاهد التي أُسست في عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه من سلاطين آل أيوب ، وذلك من فتح القدس على يده الى انتقال الحكم الى سلاطين المماليك في سنة ٦٤٨ للهجرة ، أي نحو خمس وستين سنة :

المدرسة الصلاحية : انشأها صلاح الدين في سنة فتح القدس لفقهاء الشافعية ،وحبس عليها الأوقاف في المدينة وجوارها . ووكل ادارتها والتدريس فيها الى القاضي بهاء الدين بن شدّاد . وقد سُجلت الوقفية بعد ذلك في سنة ٥٨٨ للهجرة . ويمكن الاستنتاج من رواية لأبي الفداء[١٠] ان الصلاحية قامت في المكان الذي كانت فيه دار العلم الفاطمية ، اي الى داخل باب ستنا مريم في سور المدينة الشرقي . وكان هذا المكان بالأصل كنيسة صغيرة أُقيمت فوق قَبْو منحوت في الصخر قِيلَ ان مريم العذراء ولدت فيه ، خلافاً لروايات اخرى مشهورة انها ولدت في الناصرة . وقد أزال الصليبيون دار العلم وهدموا الكنيسة القديمة وشيدوا مكانها فوق القبو كنيسة جديدة متقنة البناء وجعلوا بجانبها ديراً للراهبات .

ويبدو ان المدرسة الصلاحية قامت في هذا الدير لا في الكنيسة نفسها كما هو الشائع . وظل القبو بعد جلاء الصليبيين موكولاً أمره الى

---

(١٠) المختصر في تاريخ البشر (استانبول ، ١٢٨٦) ج ٣ ص ٨٧ (في حوادث سنة ٥٨٨ هـ) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نصارى الشرق من طائفة اللاتين في القدس ، فاعتاد الرهبان والحجاج من الافرنج زيارته على مر القرون لقاء دفع ضريبة خفيفة . وعلا شأن الصلاحية في عهد المماليك وصار شيخها يُعين بمرسوم سلطاني ، وأصبح مع نائب السلطنة (أي الحاكم العام) وناظر الحرمين الشريفين (اي الحرم القدسي والحرم الخليلي) ، احد الاركان الثلاثة في حكم مدينة القدس . وكان من ألقابه « قاضي قضاة الشافعية » . وظلت مشيخة المدرسة خاصة بمن يتولى هذه الوظيفة تنفيذاً لشروط الوقفية . ولم يتغير ذلك بعد ان توسّع نطاق التدريس ودخل الصلاحية مدرسون من المذاهب الأخرى ، وعلى رأسهم قاضي قضاة الحنفية وقاضي قضاة المالكية وقاضي قضاة الحنابلة . وكانت وظيفة التدريس في الصلاحية من الوظائف العلمية العليا لا يصل اليها إلا من اشتهر بالعلم والتقوى وارتقى في الوظائف العلمية من أول درجة في السلّم . وقلما يخلو كتاب في تاريخ المدينة من ذكر شيوخ الصلاحية بين أهل الحل والعقد فيها . (ذكرها كتاب الأنس الجليل ، ص ٣٠٢ ، ٣٩٣) .

المدرسة الأفضلية : أنشأها في سنة ٥٨٩ للهجرة الملك الأفضل نور الدين ابو الحسن علي الذي تولّى ملك دمشق نيابة عن والده صلاح الدين وخلفه في ملكها ، وكانت القدس من ملحقات دمشق . وقامت المدرسة الأفضلية على أرض مُلاصقة للحائط الغربي للحرم الشريف ، أوقفها الملك الأفضل على المغاربة من المالكية المجاورين في تلك البقعة فعرفت بحارة (اي حي) المغاربة . ووقفية الأرض مسجلة في المحكمة الشرعية بالقدس[١١] . ولهذه البقعة أهمية خاصة في تاريخ الاسلام

(١١) نشرنا نص الوقفية مع ترجمتها الى اللغة الانكليزية وتفسير غامضها واصطلاحاتها لتكوّن جزءاً مهماً من رسالتنا التي عنوانها :

the Islamic pious Foundations in Jerusalem: Origins, History and Usurpation by Israel(London,1398/1978),P.14,59

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لعلاقتها بإسراء رسول الله من مكة الى القدس ، وربْط البُراق الذي حمله اليها في ذلك المكان ، قبل الاتجاه مع جبريل الى الصخرة المشرفة حيث صلى رسول الله بقربها إماماً بمن سبقه من الأنبياء قبل معراجه من فوق الصخرة الى السماء ومناجاة ربه . (ذكرها كتاب الأنس الجليل ص ، ٣٩٧)

المدرسة الميمونية : كانت في الأصل زاوية انشأها للشافعية سنة ٥٩٣ للهجرة ، ووقف عليها الأوقاف ، الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون بن عبد الله القَصرْي ، « خازندار » (أي وزير المالية) في مملكة صلاح الدين . وهذه المدرسة هي من المعاهد القليلة جداً التي لم تكن بقرب حائط الحرم الشريف أو داخله . فموقعها قرب باب الساهرة داخل سور المدينة من جهة الشمال . (ذكرها كتاب الأنس الجليل ، ص ٣٩٩)

المدرسة الجرّاحية : وهده ايضاً كانت في الأصل زاوية . وهي الوحيدة التي قامت خارج سور المدينة ، في المكان الذي عُرف فيما بعد بحي الشيخ جرّاح الى الشمال من باب العامود على الطريق الى نابلس . وهي منسوبة الى مؤسسها وواقفها الأمير حسام الدين الحسين بن شرف الدين عيسى الجرّاحي ، أحد قواد جيش صلاح الدين الذي خلّص القدس من أيدي الصليبيين . وقد توفى الجراحي في سنة ٥٩٨ للهجرة ودفن بزاويته أو مدرسته . (الانس الجليل ، ص ٣٩٧)

المدرسة النَّصْرية : وعرفت ايضاً بالغزالية . كانت قبل سقوط القدس بأيدي الصليبيين زاويةً في البُرْج القائم فوق الباب المزدوج المسدود في حائط الحرم الشريف من جهة الشرق (أي باب الرحمة وباب التوبة) . وقد أقام فيها ابو الفتح نَصْر بن ابراهيم المقدسي النابلسي فعرفت باسمه ، ثم أقام بها تلميذه ابو حامد الغزالي فعرفت باسمه ايضاً[١٢] . وقد بطل

(١٢) فصّلنا ذلك في مقالة عن إقامة الغزالي في القدس نُشِرتْ في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : م ٤١ ، ج ١ ، ص ٩٩ ـ ١١١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

استعمالها في اثناء الاحتلال الصليبي . وفي سنة ٦١٠ للهجرة جدّدها الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل (أخي صلاح الدين) مدرسة لتدريس القرآن وتعليم النحو ، ووقف عليها الكتب والعقارات . (الانس الجليل ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥)

المدرسة النحوية : انشأها الملك المعظم عيسى تحت قبة بناء جديد سنة ٦٠٤ للهجرة على الطرف الجنوبي من صَحْن مسجد قبة الصخرة المشرفة ، وجعلها وقفاً على الحنفية لتدريس القرآن وكتاب سيبويه في النحو . (الأنس الجليل ، ص ٣٥٥ ، ٣٨٥ ـ ٣٨٦)

المدرسة المعظمية : أوقفها الملك المعظم عيسى على الفقهاء والمتفقهة من الحنفية بقرب باب شرف الانبياء من ابواب الحرم الشريف من جهة الشمال ، وذلك في سنة ٦١٤ للهجرة ، ولا يُعرف كيف صار وقفها قبيل سنة ٩٠٠ للهجرة « بأيدي الناس إقطاعاً وملكاً » (الأنس الجليل ، ص ٣٩٣ .)

(٣)

أما المدارس التي أُنشئت في عهد المماليك فكثيرة ، اذ امتد حكمهم اكثر من قرنين ونصف القرن . وفيما يلي بعضها وأظهرها في المصادر :

الخانقاه الدّوادارية : بناها للصوفية الأمير علم الدين ابو موسى سَنْجَر بن عبد الله الدَّوادار الصالحي (والدوادار كان موظفاً عند السلطان مُهمته حمل الدواة وتوقيع الرسائل) ، وذلك في سنة ٦٩٥ للهجرة عند باب شرف الانبياء من ابواب الحرم الشريف من جهة الشمال . واوقف عليها الأوقاف في مدينة القدس وفي خارجها ، وشرط تدريس مذهب الامام الشافعي فيها وتلاوة القرآن الكريم وقراءة الحديث الشريف . (الأنس الجليل ، ص ٣٩٠ ، ٤٩٥)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدرسة الجاولية : انشأها ووقفها الأمير علم الدين سَنْجر الجاولي . نائب السلطنة في غزة (توفي سنة ٧٤٥ هـ) وذلك بباب الغوانمة عند الزاوية الشمالية الغربية لحائط الحرم الشريف . ولكنه لم يَطُل استعمال بنائها مدرسة ، لأنه أصبح بعد نحو مئة سنة من تأسيس المدرسة داراً لإقامة نُوّاب السلطنة . (الانس الجليل ، ص ٣٩٠)

المدرسة التُّنْكزية : انشأها وحبس عليها الأوقاف الأمير سيف الدين تُنْكز الناصري ، نائب السلطنة في الشام ، وذلك في سنة ٧٢٩ للهجرة خارج باب السلسلة من ابواب الحرم الشريف في جهة الغرب . وكانت كما قال مجير الدين العُلَيْمي « وليس في المدارس أتقن من بنائها » . وكان من مدرسيها المشهورين جمال الدين ابو محمود احمد بن هلال المقدسي مؤلف كتاب « مثير الغرام بفضائل القدس والشام » (وجاء العنوان ايضاً : مثير الغرام الى زيارة القدس والشام) . وقد اتخذ نواب السلطنة بناء التنكزية مقراً لهم ، بل جعلها بعضهم داراً لسكنه . (الأنس الجليل ، ص ٣٨٧)

الزاوية الفخرية : هي وقف شرعه « ناظر الجيوش الاسلامية » ، القاضي فخر الدين ابو عبد الله محمد بن فضل الله (وكان أصله قبطياً فأسلم وحسن اسلامه وتوفي سنة ٧٣٢ للهجرة) وكانت الزاوية على حافة حارة (حي) المغاربة بجوار المسجد الأقصى من جهة الغرب ، لها باب من داخل المسجد وآخر يُفْضي الى حارة المغاربة . وكانت في اوائل العهد العثماني لقراء القرآن الكريم يُعين شيخها برسوم سلطاني ، ثم غلبت عليها صفة الزاوية ، وصارت مقراً لمفتي الشافعية من أسرة ابي السعود التي اتخذت الزاوية داراً لها (هدمها الصهيونيون بعد هدم جميع المباني في حي المغاربة في سنة ١٩٦٧) . (الأنس الجليل ، ص ٣٨٦)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المدرسة الفارسية : انشأها الأمير فارس البكّي ابن الأمير قَطْلو بن عبد الله ، نائب السلطنة بالجهات الساحلية والجبلية ونائب غزة ، وذلك في سنة ٧٥٥ للهجرة ، عند باب شرف الانبياء ، ووقف عليها « حصة » في قرية طوركرم (وهي مدينة طولكرم الآن) وقد رأى الوقفية بعينه قاضي القدس ومؤلف كتاب الانس الجليل (ص ٣٩٠) .

المدرسة الأرغونية : بناها لتكون « مدرسة وتُرْبة » الأمير أرْغون الكاملي ، نائب السلطنة ببلاد الشام ، وذلك في سنة ٧٥٨ للهجرة ، فتوفي في تلك السنة ، فاكملها بعده الأمير رُكْن الدين بَيْبَرْس في السنة التالية . والمدرسة واقعة عند باب الحديد (الذي يُسمى ايضاً باب أرغون ، وهذه كلمة تركية معناها الحديد) من جهة الغرب من ساحة الحرم الشريف (الانس الجليل ، ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩)

المدرسة المَنْجكية : أنشأها الأمير سيف الدين مَنْجك ، نائب السلطنة في بلاد الشام ، وذلك في سنة ٧٦٢ للهجرة ، بقرب باب الناظر (او باب علاء الدين البصير) من ابواب الحرم الشريف من جهة الغرب . وقيل أنه أُرسل لإنشائها باسم السلطان الملك الناصر ، فلما قُتل هذا بناها الأمير باسمه هو وحبس عليها الأوقاف وعيّن لها ناظراً وشيخاً . واعتاد قاضي القدس أن يدرّس فيها مع غيره من المدرسين وقرّاء القرآن الكريم الذين « كانوا يعلّمونه بأجر معلوم » (الانس الجليل ، ص ٣٨٩)

المدرسة الخاتونية : أوقفتها اولاً أَغَل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية سنة ٧٥٥ للهجرة ، ثم زادت في عمارتها وأوقافها أُصْفَهان شاه بنت الأمير قازان شاه سنة ٧٨٢ للهجرة . وهي احدى المدارس الثلاث التي أوقفتها النساء . والظاهر من الأسماء ان السيدتين كانتا من غير العرب . وتقع الخاتونية بغرب باب الحديد الى الجنوب من الأرغونية . (الانس الجليل ، ص ٣٨٨)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدرسة الباسطية : تقع بقرب باب شرف الانبياء في الجهة الشمالية من الحرم وتُطِل على الدوادارية . وكان أول مَنْ اختطها شيخ المدرسة الصلاحية شمس الدين محمد الهَرَوي ، فمات قبل اتمامها ، فتولى ذلك بعده القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي « ناظر الجيوش المنصورة » ، وذلك في سنة ٨٣٤ للهجرة . (الانس الجليل ، ص ٣٩١)

المدرسة الغادرية : انشأتها « مصرخاتون » ، زوجة الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر ، بقرب باب حِطّة في الجهة الشمالية من ساحة الحرم ، وذلك في عهد الملك الأشرف بِرْسْبايْ سنة ٨٣٦ للهجرة ، وكان من أوقافها خان وحوانيت خارج باب القَطّانين من ابواب الحرم من جهة الغرب . (الانس الجليل ، ص ٣٩٨)

المدرسة العثمانية : اوقفتها السيدة أَصْفهان شاه خاتون من بلاد الروم (اي الأناضول) ، ووقفت عليها الأوقاف في تلك البلاد ، وذلك سنة ٨٤٠ للهجرة . وقد بنيت المدرسة فوق رواق من اروقة ساحة الحرم بباب القطانين . ومن مشائخها المشهورين سراج الدين بن زكريا بن يوسف الرومي (أي الأناضولي) الحنفي الذي « أقْرأ الناس العلوم العقلية والتفسير » ثم ترك المشيخة مختاراً لَمّا علم ان الواقفة اشترطت في الشيخ ان يكون أعلم أهل زمانه ، فقال « أنا لست بهذه الصفة » . وذِكْرُ العلوم العقلية له دلالة مهمة بجانب العلوم النقلية . (الانس الجليل ، ص ٣٨٨ ، ٥٦٦)

المدرسة الجوهرية : وقفها الأمير جوهر القُنْقباي الخازندار سنة ٨٤٤ للهجرة ، وهي تقع عند باب الحديد من ابواب الحرم الشريف من جهة الغرب . ومن اشهر مدرسيها كمال الدين ابو المعالي محمد بن ناصر الدين المقدسي ، الذي كان له « مجلس » في المسجد الأقصى قبل ان اصبح شيخ الصلاحية ثم شيخ الأشرفية ، وهو استاذ مجير الدين العليمي مؤلف كتاب الانس الجليل (ص ٣٨٩ ، ٧٠٦)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المدرسة الأشرفية : بنيت مرتين فهدم البناء الأول وقام الثاني مكانه بأمر الملك الأشرف قايتْباي عندما زار القدس في سنة ٨٨٠ للهجرة ، وتم البناء الثاني بعد ذلك بسبع سنين فكان كما قال مجير الدين « جوهرة ثالثة في منطقة الحرم بعد قبة الصخرة وقبة الأقصى » . وقد بنيت الأشرفية داخل الحرم الشريف بين باب القطانين وباب السلسلة ، وكانت من طابقين ازدانا بكثير من الاحجار الملونة والرخام ، فالسفلي كان ملاصقاً لثلاث من قناطر ساحة الحرم والعلوي كان يُطل عليها . وكان للمدرسة بابان يُفْضي احدهما الى الساحة ويفضي الثاني الى طريق باب السلسلة . وقد وقف الاشرف على مدرسته الأوقاف وعين لها المدرسين والفقهاء وخصص لهم « المعاليم » ، فكانت آخر ماأسسه المماليك في القدس من المدارس ، اذ خلفهم على الحكم آل عثمان بعد خمس وثلاثين سنة من اكمال بناء الاشرفية . (الانس الجليل ، ص ٣٨٨ ، ٦٥٦ ـ ٦٥٧ ، ٧٠٩ ـ ٧١٠)

اذا تقيدنا بعنوان هذا البحث حرفياً فقد يصح الوقوف عند هذا الحد ، ولكنه ناقص مبتور اذا لم نكمله ببيان مصير هذه المدارس في العهد العثماني وحالة أبنيتها بعد تعطيل التدريس فيها . فالعثمانيون لم يكونوا كمن سبقهم من الأيوبيين والمماليك في الاهتمام بتأسيس المدارس . بل اقتصر هَمّ سلاطينهم على ترميم مسجدي الحرم الشريف وصيانة بنائها . والسلطان الوحيد الذي له آثار مهمة في القدس هو سليمان القانوني فبعد عمارة قبة الصخرة وجّه عنايته لعمارة سور المدينة وإنشاء السُّبُل (لماء الشرب) فيها وحولها . وانشأت زوجته الروسية الأصل في سنة ٩٥٩ للهجرة « تكية خَاصْكي سلطان » ووقفت عليها الأوقاف لمنفعة الفقراء وطلاب العلم . كما انشأ في سنة٩٤٧ للهجرة بايْرام جاويش بن مصطفى ، الذي أشرف على عمارة السور باسم السلطان ، رباطاً « ومكتباً لقراءة الأولاد » عُرف فيما بعد بالمدرسة الرصاصية ، بعد أن تغيّر معنى هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاصطلاح وَصار يُطلق على المكتب او الكُتّاب الخاص بالتعليم الابتدائي . ولا نعرف مدرسة واحدة أسسها العثمانيون في القدس لها شهرة ما أسسه الايوبيون والمماليك من المدارس فيها .

(٤)

ظلت مدارس الأيوبيين والمماليك عامرة عاملة ، بفضل ما حُبس عليها من الأوقاف ، في أثناء المئة الأولى والمئة الثانية من العهد العثماني ، ثم بدأت تنحلّ وتخرب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري . زار الرحالة التركي أوْليا جلبي القدس في سنة ١٠٨٣ للهجرة ، وكتب في رحلته انه وجد حول جميع جهات الصخرة المشرفة (وهو يقصد الحرم الشريف) غُرفاً لأربعين مدرسة وهذا الكلام غير دقيق فالمدارس كلها كانت في الجهتين الشمالية والغربية فقط . وكتب الرحالة في موضع آخر أن عدد الغرف الخاصة بالمدارس والزوايا بلغ المئتين ، ثم خلط مرةً اخرى فقال ان عدد المدارس والزوايا ، بين كبيرة وصغيرة ، بلغ ثلاثمئة وستين تقريباً . وزار بناء المدرسة السلطانية (اي الاشرفية) وصعد مئذنتها فشاهد جميع انحاء المدينة منها . ولكنه لا يقول شيئاً عن التدريس والمدرسين لا في هذه المدرسة ولا في غيرها[١٣] .

وبعد أوليا جلبي بقليل زار القدس الرحالة الصوفي عبد الغني النابلسي وذلك في سنة ١١٠١ للهجرة ، فكتب هو ايضاً عن بعض

(١٣) سياحتنامه‌سي (طبع استانبول بالحروف اللاتينية ، سنة ١٩٣٥) ، ج ٩ ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٨ . كان المرحوم اسطفان حنا اسطفان ، أمين مكتبة المتحف الفلسطيني بالقدس ، قد ترجم القسم الخاص بها في رحلة أوليا جلبي من التركية الى الانكليزية ونشر الترجمة في مجلة دائرة الآثار الفلسطينية مجزّأةً في السنين ١٩٣٥ و ١٩٣٦ و ١٩٣٨ و ١٩٤٢ . وبعد أربعين سنة أي في سنة ١٩٨٠ أعادت شركة النشر الاسرائيلية آرْيلْ طبع ترجمة اسطفان بطريقة غريبة . فلم تذكر عن المترجم غير اسمه ، ولم تذكر مجلة الآثار =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مدارسها ، ولكنه اقتصر على وصف البناء ، فقد فَصَّل القول عن بناء الأشرفية ، وأجمله عن بنائي المدرستين الصلاحية والغادرية . ولكنه هو ايضاً لم يقل شيئاً عن التدريس أو المدرسين[١٤] . فهل يصح الاستنتاج ان التدريس كان معطلاً أو ان نشاط حلقاته لم يكن على الأقل ظاهراً للزائر ؟ الغالب ان الإهمال فالانحلال بدآ حوالي هذا الوقت . جاء في ترجمة الشيخ جمال الدين بن محمد العجمي القدسي (توفي سنة ١٠٠١ للهجرة) أنه درّس بدار الحديث وعمّر جزءاً من المدرسة الظافرية كان متهدماً واتخذه مسكناً له . وجاء ما يشبه ذلك في تراجم علماء درّسوا في مسجدي الحرم الشريف أو في مدارس ذُكر منها الصلاحية والميمونية والتنكزية والعثمانية ولم يُذْكر غيرها[١٥] .

= الفلسطينية الا رمزاً بالحروف الأولى من العنوان ، والمقدمة المكونة من صفحة واحدة لا تذكر اسم محرر للطبعة ، وتدل على هدف سياسي بذكر « ارض اسرائيل » بدلاً من « فلسطين » . وهذا هو عنوان ما نُشر :

Evliya Tshelebi Travels in Palestine, Translated From Turkish by st. H. stephan. Ariel Publishing house, Jerusalem, 1980.

(١٤) رسالة عبد الغني النابلسي عنوانها « الحضرة الأُنسية في الرحلة القدسية » ، منها نسخة خطية في القدس كانت في المكتبة الخالدية واخرى خطية أيضاً في المكتبة الظاهرية بدمشق . وقد طبعت الرسالة بمطبعة الاخلاص في القاهرة سنة ١٩٠٢ ووقف على طبعها ديمتري نقولا .

(١٥) تفصيل ذلك اعتماداً على كتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبي ، وعلى كتاب « سلك الدر في اعيان القرن الثاني عشر » للمرادي في رسالتنا المطوّلة (القدس الشريف في تاريخ العرب والاسلام) في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م ٥٤ ج ٤ ص ٧٩٤ ـ ٧٩٨ ، وم ٥٥ ج ١ ص ٢٣ ـ ٦٠ . (راجع الصفحات ٧٩٤ ـ ٧٩٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا مثل آخر اعتماداً على كتاب مخطوط ألفه في سنة ١١٩٤ للهجرة الحاج حسن بن عبد اللطيف الحسيني مفتي الحنفية بالقدس ، ترجم فيه لطائفة من أعيان علمائها في القرن الثاني عشر . وقد جاء في هذا الكتاب ذكر لأربع مدارس وهي الصلاحية والأفضلية والبلدية والطُشْتَمرية . ويؤخذ في هذا الكتاب ان معظم أصحاب التراجم درّسوا في المسجد الأقصى أو في مسجد قبة الصخرة المشرفة ، وبعضهم درّسوا في مدرسة من المدارس الأربع المذكورة . ولكن لا ذكر في الكتاب للمدرسة الاشرفية ولا لغيرها من المدارس التي كانت أقل شأنا[١٦] .

فهذه القرائن تدل على استمرار الإهمال والانحلال فالخراب ، حتى انه لم تَبْق مدرسة واحدة عاملة في القرن الثالث عشر (التاسع عشر) ، ومن الدلائل على ذلك خلو الوثائق الرسمية المتعلقة بحكم محمد علي باشا بين سنتي ١٨٣١ و ١٨٤٠ من ذكر أي مدرسة من المدارس في القدس . ولهذا اسباب مختلفة منها إهمال الولاة العثمانيين وكثرة تبديلهم ، ومنها سوء الإدارة الذي جعل الوظائف الدينية كالوظائف المدنية تباع وتشترى في عاصمة السلطنة وفي الولايات ، ومنها تراخي الرقابة على أوقاف المدارس وصرف ريْعها في وجوهه الشرعية ، ومنها توريث وظائف التدريس ونظارة الوقف دون اعتبار الكفاية العلمية والخلقية ، ومنها هجرة عدد من علماء القدس الى استانبول طلباً لوظائف التدريس في مدارسها أو مدارس غيرها من المدن التركية ، ومنها استِئْثار ورثة المدرسين ومتولي الأوقاف بما تحت أيديهم من أراضٍ وأبنية وتحويل منفعتها لمصالح شخصية ، ومنها الإفراط في استخدام طريقة الحِكْر الشرعية . ويبدو ان

(١٦) « تراجم جماعة من أفاضل بيت المقدس » : النسخة المخطوطة الموجودة في المتحف البريطاني تحت رقم OR 3047 .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا وذاك بدأ قبل انتهاء حكم المماليك : يقول قاضي القدس عند ذكر أوقاف المدرسة المعظّمية في سنة ٩٠٠ للهجرة ، « وقد أخذ غالبها وصار بأيدي الناس إقطاعاً وملكاً »[١٧] .

وماذا جرى لأبنية المدارس بعد تعطيل التدريس فيها ؟ ذُكر آنفا ان المماليك استعملوا بناء المدرسة الجاولية وبناء المدرسة التنكزية لإقامة نواب السلطنة والقضاة ، ولكنه لا شك ان ابنية المدارس الأخرى ظلت في عهدهم تستعمل للتدريس بحسب شروط الوقف . واستعمل العثمانيون ايضاً بناء التنكزية فجعلوه مقراً للمحكمة الشرعية ، واستعملوا ايضاً بناء الجاولية مكتباً (السراي) للوالي . ولكنهم كانوا أقل مراعاة لشروط الوقف ، بل خالفوها باستعمال رباطين في باب الناظر سجناً ، اولهما رباط علاء الدين البصير (اوقفه علاء الدين آيدغدي ناظر الحرمين سنة ٦٦٦ للهجرة على الفقراء من زوار القدس) . وثانيهما الرباط المنصوري (أوقفه الملك المنصور قَلاَوون الصالحي سنة ٦٨١ للهجرة للغرض نفسه) . ولم يستعمل العثمانيون لاغراض تعليمية اي بناء من ابنية المدارس المعطلة إلا بناء المدرسة الميمونية ، وذلك في السنوات الأخيرة لحكمهم . ففي سنة ١٣١٠ للهجرة (١٨٩٢ للميلاد) فتحوا في بناء تلك المدرسة « المكتب الاعدادي » . ولكن لايُعْرف متى قُلب الاسم فصار المأمونية ، اذ بهذا الاسم قامت في عهد الانتداب البريطاني وفي البناء نفسه مدرسة للبنات عرفت بالمدرسة المأمونية .

وماذا جرى لأبنية المدارس الاربع العظيمة التي خلّفها الأيوبيون والمماليك اي الصلاحية والأفضلية والتنكزية والاشرفية ؟ أما بناء الصلاحية فظل مهملاً نحو خمسين سنة قبل أن وهبه السلطان عبد المجيد في سنة ١٨٥٦ للامبراطور نابليون الثالث تقديراً لمساعدة فرنسا للدولة

(١٧) كتاب الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ص ٣٩٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العثمانية في حرب القرم ضد روسيا . فسلَّم الامبراطورُ البناءَ الى الآباء البيض ، وهؤلاء أعادوا الكنيسة الى ما كانت عليه في عهد الصليبيين ، وأقاموا بجانبها بناءً جديداً لمدرسة لاهوتية وبناءاً آخر جعلوه مسكناً[١٨] . وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية فيها ضد فرنسا استولى جمال باشا ، القائد العام في سورية وفلسطين ، على الابنية واسس في بناء مدرسة اللاهوت « الكلية الصلاحية » التي دامت حتى آخر سنة ١٩١٧ ، أي قبيل الاحتلال البريطاني[١٩] .

وأما بناء الأفضلية فقد أزال الصهيونيون آخر معالمه سنة ١٩٦٧ عندما هدموا جميع حي المغاربة وداراً كان فيها ضريح « الشيخ عيد » ، ولعله أحد مدرسي الأفضلية أو آخرهم[٢٠] . واما بناء التنكزية فما زال قائماً وسليماً ، فبعد أن كان مقراً للمحكمة الشرعية في العهد العثماني اصبح داراً لرئيس المجلس الاسلامي الأعلى في عهد الانتداب البريطاني . وبعد سنة ١٩٦٧ احتله الصهيونيون بجنودهم ، وحفروا تحته قبواً يقيمون الصلاة فيه[٢١] .. واما بناء الأشرفية فالظاهر ان زلزالاً قوَّض معظمه بعد سنوات من اقامة عبد الغني النابلسي فيه . ولم يهتم العثمانيون بترميمه ، وظل يتلاشى حتى لم يبق منه الآن الا بعض طابقه الأرضي ، وفيه متحف الآثار الاسلامية .

---

(١٨) Guide to the Holy land by Father B. Meistermann (Landon, 1923), P. 215-216.

(١٩) Modern History of Syria including Lebanon and Palastine by AlTibawi (Landon 1969) P. 230.

(٢٠) المفصل في تاريخ القدس لعارف العارف ، ص ٢٣٨ ، وكتاب « القدس مدينة بلا أسوار » لمؤلفه بالعبرية عوزي بنزيمان . وترجمه الى العربية محمد ماضي (القدس ١٩٧٦) ، ص ٤٣ .

(٢١) Islamic Pious Foundations in Jerusalem... by AlTibawi, P.34-40; P.71 (Picture).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولما تأسس المجلس الاسلامي الأعلى في عهد الانتداب البريطاني برئاسة الحاج أمين الحسيني ، اتخذ المجلس بناء المدرسة المنجكية مع بناء المدرسة الحسنية بجواره مقراً له ولمكاتبه . واعطى المجلس ابنية ثلاث مدارس (الجاولية والمحدثية والنصيبية) إلى المدرسة الوطنية الحديثة (روضة المعارف للبنين) وأخذ المجلس جزءاً من بناء المدرسة الباسطية (التي كان يسكنها آل جار الله) وبناء المدرسة الدوادارية بقربها وجعلها مدرسة إسلامية حديثة للبنات . ورمّم المجلس بناء المدرسة الاسعردية (التي بنيت سنة ٧٦٠ هـ) وجعله مقراً لدار كتب المسجد الأقصى ، وأعاد الرباط المنصوري لمنفعة الفقراء من زوار القدس بحسب شروط الوقف .

وكان رئيس المجلس الاسلامي الأعلى حريصاً على زيادة تعلّق العالم الاسلامي بالقدس والحرم الشريف فيها . فلما توفي الزعيم الهندي المسلم مولانا محمد علي في سنة ١٩٣٠ اتفق الرئيس مع أهله على دفنه بالقدس ، فأخذ لهذا الغرض حجرة في بناء المدرسة الخاتونية (التي كان يسكنها آل الخطيب) وفتح لها باباً على رواق ساحة الحرم وجعلها ضريحاً لمحمد علي . وفي سنة ١٩٣٣ أُخذت حجرة اخرى من بناء المدرسة نفسها وجُعلت ضريحاً لموسى كاظم باشا رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني . ثم جعلت ايضاً ضريحاً لنجلة السيد عبد القادر الذي استشهد في معركة القَسْطل في نيسان ١٩٤٨ وهو يجاهد لمنع الصهيونيين السيطرة على طريق القدس . ولما توفي الملك حسين بن علي (شريف مكة) في سنة ١٩٣١ أخذت حجرة من بناء المدرسة الارغونية (التي كان يسكنها آل العفيفي) وفتح لها باب على رواق ساحة الحرم وجعلت ضريحاً للملك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخذ المجلس الاسلامي الأعلى ما ذُكر من أبنية المدارس من أيدي أناس اتخذوها لسكنهم ، منهم أحفاد المدرسين أو مُتولي الوقف الذين استولوا على الابنية بعد تعطيل التدريس فيها . ولكن المجلس لم يأخذ جميع الابنية . وقد أحصى رئيس بلدية القدس بين سنة ١٩٥٠ وسنة ١٩٥٥ تلك الابنية التي لم يأخذها المجلس ، وكانت حينئذ دوراً تُقيم فيها أسرٌ اسلامية مشهورة . وفيما يلي خلاصة ذلك الاحصاء ، ولكن الخلاصة لاتشمل جميع الابنية ولا اسماء جميع الأسر التي ما زالت تحتلها ، إذ الغرض هو ضرب المثل لا الإحاطة :

آل جار الله : أربع مدارس وهي السلامية والباسطية (باب شرف الانبياء) والكريمية والكاملية (باب حطة) .

آل الخالدي : ثلاث مدارس وهي دار الحديث (باب السلسلة) والأباصيرية (باب الناظر) والجالقية (باب الغوانمة) .

آل الخطيب : ثلاث مدارس وهي الخاتونية (باب الحديد) والملكية (باب شرف الانبياء) والجوهرية (باب الحديد) .

آل الامام : مدرستان وهما الأمينية (باب شرف الأنبياء) والطشتمرية (باب السلسلة) .

آل الشهابي : مدرستان وهما الأرغونية (باب الحديد) والزّمينيّة (باب القطانين) .

آل البديري : مدرسة واحدة وهي الحسنية (باب الناظر) .

آل الفتياني : مدرسة واحدة وهي العثمانية (باب القطانين) .

آل الفتيالي : مدرسة واحدة وهي العثمانية (باب القطانين) .

آل القطب : مدرسة واحدة وهي الحنبلية (باب الحديد) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كل أبنية المدارس وغيرها من المعاهد المذكورة في هذا البحث ما زالت قائمة ، إلا بنائي الأفضلية والفخرية فقد ازالها الصهيونيون بعد احتلال القدس في سنة ١٩٦٧ . وقد سببّوا ضرراً كبيراً لعدد من مباني المدارس الأخرى حول الحرم الشريف بحفرهم تحتها تنقيباً عن آثار يهودية يزعمون وجودها . ومن الابنية التي تصدعت بسبب ذلك بناء المدرسة العثمانية وبناء المدرسة الارغونية وبناء المدرسة الجوهرية (وبقربه بناء رباط الكُرْد الذي انهار جزء منه) . وزيادة على ذلك يحتل الجيش الاسرائيلي بنائي المدرسة التنكزية ودار القرآن السلامية .

ولكن اذا كان مصير أبنية المدارس معلوماً ، فلا يعلم الا الله مصير ما حُبس عليها من الأراضي والعقارات . وقد تمنّى مؤلفان كانا من كبار الموظفين في عهد الانتداب البريطاني (وقد تمنيتُ معهما لما كنت حينئذٍ شاباً في ادارة معارف القدس) ، لو أمكن اكتشاف هذه الأوقاف وإعادتها لما حُبست عليه وانفاق ريعها لتعمير الابنية واعادة التدريس فيها[٢٢] . وليت الأماني بالتمني .

أول ربيع الأول ١٤٠١
السادس من يناير ١٩٨١

الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي

---

(٢٢) H.C.Luke and E. Keith-Roach, the Handbook of Palestine (Landon, 2nd. ed., 1930), P.85.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ملحق
فيه حقائق مهمة عن التعليم والعلماء
مبعثرة في كتاب الانس الجليل

(١) عُرف شهاب الدين محمد بن عبد القادر بن ناصر الأنصاري الشافعي (قاضي الخليل الذي ولد سنة ٦٠٠ للهجرة) « بابن العالمة » لأن أمه كانت تحفظ القرآن والحديث والفقه والخطب (ص ٤٦٥) .

(٢) كان تاج الدين ابو بكر علي بن أحمد الأموي المقدسي (قاضي القدس الذي توفي سنة ٧٦٩ للهجرة) يسمع من « العالمات » ومنهن زينب بنت شكر (ص٤٦٩) .

(٣) كان شرف الدين ابو الروح عيسى بن غانم الانصاري (قاضي القدس وشيخ الخانقاه الصلاحية ـ وهي غير المدرسة الصلاحية) « هو الذي حَكَر أرض البقعة ظاهر القدس الشريف الجارية في وقف الخانقاه المذكورة سنة ٧٩٣ للهجرة ، فصارت كروماً وزاد بذلك ريعها لجهة الوقف » (ص ٤٧١) .

(٤) سمع أبو الحسن علي بن محمد المعافري (أحد خطباء المسجد الأقصى) من الحافظ بهاء الدين القاسم بن عساكر نَصَّ « كتاب الجامع المستقصى في فضل المسجد الاقصى » ، وذلك في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة ٥٩٦ للهجرة (ص ٤٧٨) .

[قلت : كان ابو الحسن علي بن محمد المعافري (ت ٦٠٥ هـ) هو الذي ولي خطبة المسجد الأقصى الشريف بعد أن استردّ السلطان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من الفرنجة ، وطهّره من آثامهم عام ٥٨٣ هـ ، فقد ألقى القاضي ابو المعالي محمد بن الزكي القرشي الدمشقي خطبة الفتح البديعة الرائعة بين يدي صلاح الدين ، وخطب في المسجد الأقصى المبارك أربع جمع متواليات ، ثم سمّى السلطان صلاح الدين ابا الحسن المعافري المالقي الأندلسي خطيب المسجد الأقصى . طبع من آثار ابي الحسن كتاب : الحدائق الغناء في أخبار النساء ، وهو كتاب سمع أخباره وكتبها بدمشق سنة ٥٨١ هـ ـ شاكر الفحام] .

(٥) وُلِدَ شهاب الدين أبو العباس الكناني بقرية « مجدل حمامة » بالقرب من عسقلان من أعمال غزة ، ثم استوطن القدس ، وصار معيداً في المدرسة الصلاحية وخطيباً في المسجد الأقصى . توفي سنة ٨٧٠ للهجرة (ص ٤٨٤) .

(٦) اشتهرت زوجة الشيخ شمس الدين بن محمد الجَعْبَري من مدينة الخليل بلقب « ست المشايخ » (ص ٤٩٨) .

(٧) عُرفت أسماء بنت الحافظ صلاح الدين خليل العلائي ، وزوجة العلامة تقي الدين اسماعيل القرقشندي « بالمُسْنِدة » . توفيت سنة ٧٩٥ للهجرة ودفنت في مقبرة مأمن الله (ماملاّ) بالقدس . (ص ٥٠٤) .

(٨) لُقبت خديجة بنت أبي بكر يوسف بن سعد الدين الخليفة (توفيت سنة ٨٠١ للهجرة) « بالمسندة » . ومن العلماء الذين أجازَتْهم الحافظ ابن حجر (ص ٥٠٦) .

(٩) كانت آمنة بنت العلامة القرقشندي محدّثة في القدس الشريف ، وعرفت « بالمسندة » . توفيت سنة ٨٠٩ للهجرة ودفنت في مقبرة مأمن الله (ماملاً) (ص ٥٠٧) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(١٠) ينتسب الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن مفلح القلقيلي « قارئ الحديث ببيت المقدس » الى قرية قَلْقِيلْية من أعمال جَلْجولية . ولد سنة ٧٧٦ للهجرة وكان « يقرئ الاطفال » (اي مُعَلّم كُتّاب) . ثم ذهب إلى القدس وانتمى الى الشيخ برهان الدين بن غانم ، فكان يُقْرئ أولاده (ص ٥٢٢) . (بلدة قلقيلية الآن أكبر بكثير من قرية جلجولية المجاورة ، وهما في منتصف الطريق من يافا الى طولكرم) .

[ورد في التعليقات الملحقة بمعجم البلدان (تح وستنفلد ، ليبزيغ ١٨٧٣) ٥ : ١٧ « جلجولية : لم يذكرها المؤلف ، وهي قرية شهيرة بالقرب من الرملة ، ولم أر أحداً ذكرها ولا استحضر فيها ضبطاً محررا غير ما هو في ألسنة الناس من فتح الجيم واسكان اللام الاولى ثم جيم مضمومة ثم واو ساكنة ، ثم لام اخرى مكسورة ثم تحتانية مفتوحة ثم هاء » ـ شاكر الفحام] .

(١١) كان الشيخ أبو العزم محمد بن محمد الحَلاَوي « يُقْرئ العربية وغيرها بالمسجد الأقصى » . وكان معيداً في المدرسة الصلاحية . تُوفي في مكة سنة ٨٨٣ للهجرة (ص ٥٣٨) . هذا نص مهم يدل على ان التدريس في المسجد الأقصى لم يكن مقصوراً على العلوم الدينية .

(١٢) كان الشيخ عمر بن اسماعيل الحنبلي (توفي سنة ٨٨٠ للهجرة) . « يؤدب الأطفال بالمسجد الأقصى بالمكان المجاور لجامع المغاربة من جهته القبلية » . (ص ٦٠٣) . وهذا القول غير دقيق ، يجعل المسجد الأقصى بمثابة « كُتّاب » للأطفال ، والمؤلف هنا يقصد أن يقول الحرم الشريف ، وهو سهو يشبه قوله الذي ذكرناه في الهامش رقم (٧) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تعليق

● هذه المقالة هي آخر ما كتبه الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي ـ رحمه الله الرحمة الواسعة وأجزل مثوبته ـ لمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . وكانت مجلة المجمع واحدة من المجلات التي كان الأستاذ الطيباوي ـ طيب الله ثراه ـ يؤثرها بمقالاته ورسائله . ولعل من الوفاء لذكرى الأستاذ الكبير الذي فجعتنا به المنية (في السابع عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٤٠١ هـ / السادس عشر من تشرين الأول ١٩٨١ م ، انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٥٧ ، ص : ٢٨٦ ـ ٢٨٧) ان نعدد هنا أبرز مقالاته التي نشرتها مجلة المجمع :

١ ـ الغزالي في دمشق والقدس (مج ٤١ ، ص : ٩٩ ـ ١١١) ، ٢ ـ نصوص وحقائق لم تنشر عن أصل النهضة العربية في سورية (مج ٤٢ ، ص : ٧٧٥ ـ ٧٩٣) ، ٣ ـ الشيخ ناصيف اليازجي (مج ٤٣ ، ص : ٣٢٦ ـ ٣٤٠) ، ٤ ـ المعلم بطرس البستاني (مج ٤٥ ، ص : ٥٩٥ ـ ٦١٣) ، ٥ ـ الفرس إلاه سمث (مج ٤٦ ، ص : ٧٥٣ ـ ٧٦٧) ، ٦ ـ اللغة العربية في كتب المبشرين الأولين (مج ٤٧ ، ص : ٧٧٢ ـ ٧٨٧ ، ٩٥٠) ٧ ـ جمعية الآداب العربية في القدس (مج ٤٩ ، ص : ٨٧١ ـ ٨٨١) ، ٨ ـ توضيح وتعقيب مع مقال الأستاذ محمد جميل بيهم (مج : ٥٠ ، ص : ٦٩٠ ـ ٦٩٢) ، ٩ ـ معروف الرصافي والاستقلال العربي (مج ٥٣ ، ص : ٨٤٠ ـ ٨٦٧) ، ١٠ ـ أحكام ترجمة القرآن الكريم وتاريخها (مج ٥٤ ، ص : ٦٣٥ ـ ٦٦٠) ، ١١ ـ القدس الشريف في تاريخ العرب والاسلام (مج ٥٤ ، ص : ٧٥٣ ـ ٨٢٣ ، مج : ٥٥ ، ص : ٢٣ ـ ٦٠) ، ١٢ ـ حائط البراق والاوقاف الاسلامية في غربه (مج ٥٥ ، ص : ٢٦٦ ـ ٢٨٧) ، ١٣ ـ علماء القدس الشريف في القرن الثاني عشر (مج ٢٥٦ ص : ١٢٨ ـ ١٤٢) ، ١٤ ـ جحا العربي (مج ٥٦ ، ص : ٤٤٠ ـ ٤٤٣) ، ١٥ ـ الى محرر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٥٦ ،ص : ٦٩٧ ـ ٦٩٩) ، ١٦ ـ مجلتان شرقيتان في بلاد الغرب (مج ٥٦ ، ص : ٧٠٠ ـ ٧٠٩) [شاكر الفحام] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net